.حقيقة التعدّديّة الدينيّة:

تمثّل" التعدّديّة الدينيّة " أحد أبحاث فلسفة الدين والكلام الجديد، وهي كغيرها من منتوجات المدارس الغربيّة مفهوم مستورد من العالم الغربيّ.

ومصطلح "التعدّديّة الدينيّة " في لغته الأصليّة (البلوراليزم مشتقّ من المفردة اللاتينيّة "plural" التي تعني الكثرة، وهو يدلّ على النزوع نحو الكثرة والتعدّد والزيادة الكمّيّة . والتعدّديّة الدينيّة بصفتها رؤية كلامية ومعرفية هي إجابة على استفهامات تخصّ الأسباب التي أدّت إلى التنوّع والتكثّر في الأديان والمذاهب المتعدّدة في عالمنا المعاصر . وإنّ كثرة الأديان وتنوّعها في وقتنا الراهن بما يشمل الأديان الإلهيّة والبشرية، المحرّفة وغير المحرّفة واقع لا يمكن إنكاره .وهي كثرة تتماثل مع الكثرة التي نجدها في اللغات والثقافات والأفكار والمذاقات في كونها غير قابلة للمحو والإزالة . ولهذا فإنّك لا تجد الأديان المتعددة في أي من الأزمنة الغابرة منزويةً بنحو كامل، بل كان كلّ منها يترك بصماته على الآخر حتّى على مستوى الحياة الاجتماعيّة عند الإنسان.

ويشهد التاريخ أيضاً بوجوه شبه بين الأديان؛ حيث يتشابه أتباع الأديان المتعددة في طقوسهم ومناسكهم الدينيّة في العديد من معتقداتهم .وعلى الرغم من ذلك، فإنّ اختلافات مهمّة تفصل بينها؛ فالتوحيد عند المسلمين، والثنوية عند الزرادشتية، والتثليث عند المسيحية، وتعاليم تعدد الآلهة عند الهندوس، ما هي إلا نماذج واضحة لمجموعة من الاختلافات والتمايزات القائمة بين هذه الأديان.

. 4/12 خلفيّات التعدّديّة الدينيّة:

ما من شكّ في أنّ التنوع والتعدد في الأديان ليس بالأمر الجديد والحديث في المجتمعات البشرية، السؤال عن حقّانيّة جميع الأديان أو بعضها كان مطروحاً على

بساط البحث في الماضي أيضاً .والأمر المستحدث هنا هو محاولات فكرية قام بها التعدّديّة الدينيّة361 بعض فلاسفة الدين المعاصرين؛ مثل :كانتويل سمي (2000 م)، وجون هيك (2012 م) ، لإثبات حقّانيّة الأديان المتعددة قاطبةً. والمهم اللافت في الموضوع هو الانتباه إلى أنّ التعدّديّة الدينيّة فكرة أولدها التاريخ المسيحي، تلك المسيحية التي يعجّ تاريخها بالثبات والصمود على موقف "الانحصاريّة " !والسر الذي يكمن في اعتناق فكرة الانحصاريّة عند المسيحيين هو ما تعرّضت له المسيحية في أواخر عهد القديم من موجات التعذيب وهجمات الانتقاد، ناهيك عن التأثير الذي تركته الكلمات المنسوبة للسيد المسيح 7 التي توحي بمضامين داعمة لمزاعم الانحصاريّة؛ منها على سبيل المثال المقولة التي تنصّ على ما يلي "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالَحقُّ وَالَحْيَاةُ .لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلىَ الأبِ إِلاَّ بِيِ"

لقد ظهرت الانحصاريّة بصيغتها المتطرّفة في القرن الثالث الميلاديّ؛ حتّى بات السواد الأعظم من أتباع الديانة المسيحية يؤمن بأنّ الخلاص والفلاح غير موجود خارج كنيستهم .وقد أدّى هذا الفكر المتطرّف إلى اشتباكات وقعت بين المسيحيين الأوروبيين في القرون الوسطى من جهة، وأتباع الأديان غير التوحيديّة وكذا اليهود والمسلمين الذين كانوا يعيشون ذروة حضارتهم الإسلاميّة في الجهة الأخرى .وقد أفضى هذا الفكر وما استتبعه من ممارسات إلى تضاؤل حجم التعاطي المتبادل بين المسيحيين والمسلمين واليهود وغيرهم.

وفي تلك الحقبة التاريخية لم يستفد من أمثال ابن ميمون أو ابن سينا إلا شرذمة قليلون من مفكّري المسيحيين؛ مثل : توماس أكويناس

وبعد أن استولى المسيحيّون على السلطة في عصر التنوير الأوروبي، أو ما يسمّى John Hick بعصر النهضة، ساقتهم نزعاتهم الانحصاريّة المتطرفة إلى الميل نحو التمدّد الاستعماري، فانتشرت قوافل المبشرين المسيحيين في شتى أرجاء العالم،

هادفين في الأساس إلى تغيير الأديان .وعلى الرغم من ذلك، اضطر بعض المسيحيين في القرن العشرين لنفض اليد عن الانحصاريّة، والنزوع إلى الشموليّة أوّلاً، ثم التعدّديّة من بعد ذلك.

وقد دخلت قضية التعدّديّة الدينيّة دائرة الضوء بصفتها إجابةً على التساؤل عن حقّانيّة الأديان المتعددة أو بطلانها، وذلك من خلال تناولها في الصحافة من قبل بعض التنويريين المسلمين المعاصرين، تبعاً لأسلافهم من روّاد التنوير في الغرب . وقد طُرق هذا الباب في إيران لأوّل مرّة في العدد الأوّل الصادر من فصلية "حوزه ودانشگاه " في مقال لم يُذكر اسم كاتبه، يحمل عنوان» كتاب في مقالة« ؛ حيث حاول الكاتب في مقاله هذا أن يُعرِّف بكتاب رئيس قسم الدراسات الدينيّة في جامعة ستريلنغ البروفسور غلين ريتشاردز الموسوم بـ "نحو لاهوت ناظر إلى جميع الأديان "، ثم قامت مجلة "كيان " في عددها رقم 28 بنشر ندوةٍ دافعت عن التعدد الدينيّة. وقد قام كاتب هذه السطور بكتابة مقال يناقش تلك المقالة، وما تضمنته الندوة المشار إليها، نُشر في فصلية "حوزه و دانشگاه " تحت عنوان "التعدّديّة الدينيّة في رؤية خارجة عن النطاق الدينيّ. "

وقد أدّى نشر مقالة "الصراطات المستقيمة" لكاتبها عبدالكريم سروش في العدد رقم 36من مجلة "كيان " إلى لفت أنظار المهتمّين والقرّاء بنحو أكبر إلى هذه القضية، مما أدى إلى تبلور معسكرين مختلفين حيالها؛ أحدهما يوالي، والآخر يعارضها .ثمّ توالت بعد ذلك المقالات والمؤلفات الموافقة والمخالفة لها.

أدلّة التعدّديّة الدينيّة:

تمسّك أنصار التعدّديّة الدينيّة في إثبات مزاعمهم بأدلة دينيّة داخلية، وأخرى خارجة عن الأطر الدينيّة .وسنحاول هنا أن نستعرض الأدلة، ثم نحلّلها ونقيّمها.

وإليك فيما يلي مجموعة من الأدلة والأسس التي ابتنت عليها فكرة التعدّديّة الدينيّة في مجالي الصدق والنجاة:

أساس حوار الأديان:

تشبّث البعض من أنصار التعدّديّة الدينيّة في استدلالهم على مزاعمهم بضرورة إيجاد حوار مفتوح بين الأديان؛ فالمجتمع البشري يزخر بعدد كبير من الأديان والمذاهب المتنوعة التي يجب أن تعيش مع بعضها بأمن وسلام، ولا يمكن الوصول إلى هذا المبتغى من دون حوار بين الأديان، شرطه انشراح الصدر ورحابته؛ لمزيد من التناغم والانسجام؛ بما يُفضي إلى رفض الانحصاريّة ومدّعياتها.

والحقّ أننا لا نشكّ في وجود ضرورة اجتماعيّة معاصرة مفادها حوار بين الأديان، تسوده رحابة الصدر، وروح التناغم والانسجام، لكنّ هذا لا يدلّ على التعدّديّة الدينيّة، ولا حقّانيّة جميع الأديان الموجودة على الساحة برمّتها، ولا يؤدّي إلى إبطال الانحصاريّة الدينيّة، أو إلى إثبات الإلهيّة العالمية؛ لأنّ هذا لو تمّ لانتقض أساس الحوار الدينيّ، ولأصبح أمراً عبثياً.

أساس التمييز بين النومن والفنومن:

يبتني أحد الأسس المعرفية للتعدّديّة الدينيّة على مرتكز مستورد من فلسفة كانط ، ومفاده :التمييز بين النومن (الواقع في نفسه)، والفنومن (الواقع الظاهر) . وهو مرتكز ينتهي بمن يتبنّاه في نهاية المطاف إلى السقوط في أحضان الشكاكية والنسبية؛ فهو يقرّ بمبدأ وجود»" الواقع في نفسه " رافضاً لوجد أيّ معيار، فيضع التعدّديّة الدينيّة ونظرية المعرفة الكانطية في بوتقة الشكاكية، فلا يبقى عندئذٍ ما يميّز بين الكفر والإيمان، أو الدين واللادينيّة، أو الإلحاد والتديّن.

وعلى أساس من هذه الرؤية فإنّ التعدّديّة الدينيّة والانحصاريّة والشموليّة ليست إلا ثلاث ظهورات وتجليات لواقع واحد؛ فلا معنى للإصرار على حقّانيّة التعدّديّة الدينيّة بعد ذلك!

أمّا التمثيل الذي ورد على لسان جلال الدين الروميّ المتعلّق بقصّة الفيل في الغرفة المظلمة، فهو لا يُسمن ولا يغني من جوع، كما أنه أجنبيّ عن بحث التعدّديّة الدينيّة من الأساس .لقد ذكر الشاعر في قصيدته قصّة رهط من الناس اجتمعوا في الظلام الدامس حول فيل، فظنّ الذي لمس قدم الفيل أنه أمام عمود ضخم، وزعم الذي اقترب من الخرطوم أنه بجانب ميزاب تجري فيه المياه، وذهب الآخرون إلى مذاهب أخرى لا صلة لها بالفيل، فأطلق القوم تفسيرات متعددة ومتنوعة عن واقع واحد . وقد حاول جون هيك أن يستفيد من هذه القصة لإثبات صحّة التعدّديّة الدينيّة؛ في حين أنّ هذا التمثيل لا ارتباط له بحقّانيّة الأديان؛ لأن التعدّديّة الدينيّة تدل على حقّانيّة جميع الأديان، وتطابقها مع الواقع، في حين أنّ هؤلاء القوم لم يبلغوا واقع الفيل كما هو؛ بل ذهب الجميع إلى خلاف ذلك!

أساس الهرمنيوطيقيا الفلسفيّة :

يعتمد أحد الاستدلالات التي لجأ إليها أنصار التعدّديّة الدينيّة على نظرية الهرمنيوطيقيا الفلسفية، وما يكتنف النصوص الدينيّة من حالة صامتة، علاوةً على التعدّديّة الدينيّة ما تتركه الافتراضات المسبقة والتوقّعات التي يحملها المفسّر تجاه النصوص الدينيّة من آثار.

وهنا نقول : حتّى وإن آمنّا بأنّ هذا الاستدلال يجدي نفعاً في بيان تعدّد الفهم والتفاسير والتجارب الدينيّة، فإنّه غير كافٍ لإثبات حقّانيّة هذا التعدد، وما تدعو إليه فكرة التعدّديّة الدينيّة، ناهيك عمّ تعانيه الهرمنيوطيقيا الفلسفية عند غادامر

من إشكاليات ألسنيّة عديدة في موضوع تعدد التفاسير؛ فليس كلّ نصّ يعاني من الغموض حتّى يتطلّب منّا تفسيراً، أو إقحاماً لافتراضات مسبقة !بل المطلوب من المفسر أن يبتعد عن ليّ عنق النصّ لكي يتناسب مع افتراضاته، وأن يكتفي في محاولاته لبلوغ المعنى بمعلوماته المسبقة؛ سواء كانت معلومات استخراجية، أو استفهامية.

ولا يخفى أنّ انطواء القرآن الكريم على» بطون « ومعانٍ توصف بأنها باطنية لا يدلّ بأيّ نحو من الأنحاء على نظرية "القبض والبسط في المعرفة الدينيّة "، ولا على "التعدّديّة الدينيّة "، بل إنّ الكتاب والسنة لا يتّفقان مع فرضيّة "صمت النصوص الدينيّة"، ويصرّحان بأنّ القرآن الكريم "تبيان لكلّ شيء"، ويصفانه بـ "المبين "، وما شاكل ذلك من الصفات.

أساس تكافؤ الأدلّة :

استدلّ بعض أنصار التعدّديّة الدينيّة لإثبات حقّانيّة جميع الأديان بما يسمّى بـ "تكافؤ الأدلّة "؛ أي : تساوي أدلة القضيّتين المتعارضتين . والردّ على ذلك : أنّ تكافؤ الأدلّة لا يحصل إلا بعد نظرة معرفية من الدرجة الثانية؛ في حين أنّ حقّانيّة الأديان أو بطلانها هي معرفة من الدرجة الأولى، وهي أمر يجب حسمه بمنهج فلسفيّ.

١- لا يمكن الوصول إلى حقّانيّة أمر ما أو إلى بطلانه من خلال تكافؤ الأدلة، بل الذي يمكن أن يُصار إليه من ذلك هو الطعن في الطرفين معاً.

٢- لا تجوز دعوى تكافؤ الأدلّة من خلال نظرية معرفية من الدرجة الثانية؛ فإنّ غاية ما يصل إليه صاحب هذه النظرة عند البتّ في حقّانيّة الأديان أو بطلانها هو

التوقّف . هذا ناهيك عن أنّ الاستدلال من خلال تكافؤ الأدلّة يستلزم اجتماع النقيضين.

الأساس الدينيّ الداخليّ :

تمسّك أتباع التعدّديّة الدينيّة لإثبات مدعياتهم بأدلة دينيّة داخلية، فذكروا على سبيل المثال قوله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهم وَلا خَوْفٌ عَلَيهْمْ وَلا هُمْ يَحزَنُونَ﴾، فاستنتجوا من هذه الآية الشريفة التعدّديّة الدينيّة؛ لأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالٰى اشترك في فلاح الإنسان ونجاته من العذاب الأخروي، وتنعّمه بالأجر والثواب أموراً ثلاثة؛ هي :الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح . وبناءً على ذك فإنّ المسلمين واليهود والنصارى والصابئين إذا توافروا على هذه الشروط فقد حازوا الخلاص . وبالتالي :فإنّ اتّباع دين معيّ بعينه ليس هو الشرط الذي يؤكّد عليه القرآن الكريم، بل هو يعلّمنا أنّ جميع الأديان سواء في سيرها إلى إسعاد الإنسان، وسوقه نحو الفلاح والنجاة!

استدلّ بهذا الدليل لأوّل مرّة بعض المستشرقين، واستبشر به المتغرّبون .ولكنّه يعاني من خلل توضحه المناقشات التالية:

١- لا تدلّ هذه الآية على التعدّديّة الدينيّة التي تعني حقّانيّة جميع الأديان وتطابقها مع الواقع، بل تنحصر دلالتها في الحكم على المؤمنين بالله، وباليوم الآخر، والعاملين صالحاً بأنهم من أهل الفوز والنجاة .وعليه :كيف يمكن أن تُستنبط منها التعدّديّة الدينيّة في الصدق والحقّانيّة؟

٢- لا يدلّ مفاد الآية الكريمة أنّ مجرّد انتماء الإنسان إلى الإسلام أو اليهودية أو النصرانية أو دين الصابئة يُفضي إلى الفلاح والنجاة، بل صرّحت بأنّ شرط النجاة هو معرفة واتّباع الشريعة الحقّة .وبالطبع، فإنّ المؤمنين بالشرائع المحرّفة إذا تخلّفوا عن اتّباع الشريعة الحقّة، لكنّ تخلّفهم هذا لم يكن عن عناد وعدوان، بل نشأ من الجهل والغفلة، فإنّ أعمالهم الصالحة تُزكى عند الله عَزَّ وَجَلَّ بالخير . وبعبارة أخرى : سوف يؤثّر الحُسن الفاعليّ إيجابيّاً في نجاة جهلة المؤمنين الذين لم يعملوا عملاً صالحاً.

٣- الإيمان بالله يستلزم إيماناً بما تضمّنه الوحي الإلهيّ، فلايمكن للمؤمنين بالأديان المتعدّدة أن يفوزوا بالسعادة والفلاح من دون أن يؤمنوا بمضامين الوحي الإلهي، وهذا يعني ضرورة إيمانهم بالإسلام، وأن يسلموا وجهم لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، فيؤمنوا في عصر إبراهيم بشريعة إبراهيم، وفي عصر نوح بشريعة نوح، وفي عصر موسى بشريعة موسى، وفي عصر عيسى بشريعة عيسى، وفي عصر النبيّ الخاتم محمّد بشريعته الخاتمة . وعليه :فإنّ الإنسان لن ينال الفلاح من دون إيمانه بالوحي الإلهي .وبناءً على ذلك، فإنّ مفاد هذه الآية الكريمة هو أنّ الانتماء الدينيّ إلى الإسلام أو اليهودية أو النصرانية أو قل :التديّن بالهويّة لا يكفي لبلوغ مرتبة الفلاح والسعادة، بل يلزم لذلك الوصول إلى إيمان واقعي بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالىٰ، وباليوم الآخر، وإلى عمل صالح، أو قل :إلى الإيمان بما أنزل الله جَلَّ وَعَلا .ولهذا، نجد أنّ إبليس رغم اعترافه وإيمانه بوجود الله وباليوم الآخر، ورغم ذلك الكمّ الهائل من العمل الصالح الذي تمثّل بعبادة استمرّت آلاف السنين قد خرج عن الرحمة الإلهيّة؛ لمخالفته أمراً من أوامر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

٤- لو ادّعى أحدهم أنّ ظاهر هذه الآية يدلّنا على أنّ الإيمان بوجود الله عَزَّ وَجَلَّ وباليوم الآخر، مضافاً إلى العمل الصالح كافٍ في إيصال الإنسان إلى الفلاح

والسعادة، ولا أثر للإيمان بما أنزل الله في ذلك .نقول :يتعارض هذا الفهم مع آيات قرآنيّة أخرى صُح فيها بكفر أصحاب العقائد الباطلة من أهل الكتاب، وبُيّ فيها أنّهم معذّبون .قال تعالى :﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنّ الله ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٥- العمل الصالح شرط ثالث للفلاح والسعادة، وتحقّقه من دون فهم يقينيّ وشريعة سماوية حقّة غير ممكن؛ فإذا أراد المرؤ أن يُسجّل لنفسه عملاً صالحاً، لا بدّ له من أن يتمسّك بشريعة إلهيّة حقة غير محرّفة .

الدين والأخلاق، إنسانية الدين

والأخلاق، اصطلاحاً: القيم الإنسانية التي يعارف الباحثون على أنها غايات يطلبها الإنسان لذاتها، ومن شأنها أن يؤدي إي مقاصد سامية يتمثل في تحقيق السعاة للأفراد والجماعات .وقد أجمع الباحثون على أن القيم الإنسانية ينضوي تحت ثلاثة عناوين كبيره : الحق والخير والجمال . وهناك من أضاف إليها قيمة رابعة هي (النزعة الدينية)، فيما اعتبر آخرون أن هذه النزعة هي مجرد اتجاه نحو القيم الأخرى . وثمة من اعتبر أن هذه النزعة للتدين ممتزجة بالقيم الكبرى المذكورة ، أي إن الدين هو الذي يوجه الإنسان نحو هذه القيم الثلاث

ويبلورها من خلال" التصور الاعتقادي لهذه القيم"، ذلك بأنه يجعلها جزءاً لا يتجزأ من عقيد الإنسان الدينية.

هذا التصنيف للقيم يقودنا إي التساؤل عما إذا كانت هذه القيم معاني عقلية، أي من نتاج العقل الإنساني وابتكاره، أم أن لها وجوداً عينياً مستقلاً عن العقل؟ بمعنى

آخر :هل يكتسب هذه القيم معانيها بالقياس الى تفكير الإنسان وشعوره حيث يعطيها العقل هذه المعاني، أم أن لهذه القيم صفات ذاتية خالصة توجب الحكم عليها بأنها حق وخير وجمال؟ بعض الباحثين أجاب عن هذا السؤال بالقول إنّ هذه القيم ليست موضوعية

خالصة ولا ذاتية خالصة، بل تحتوي على العنصرين معاً .إن فيها عنصراً ذاتياً يسبغ عليها معانيها الأصلية، وعنصراً موضوعياً يحدد لنا صفات الموضوع الذي يمكن أن ننسبه الى هذه القيم، ولكن، في كلتا الحالتين، تعتبر هذه القيم، وفق المفهوم الإسلامي ، غايات في حد ذاتها، وليس مجرد وسائل لتحقيق غايات . ولذلك اتخذ الدين

الإسلامي هوية ترسمها القيم وعنوانها العام مكارم الأخلاق .حتى أن العبادات في الإسلام تهدف الى تفعيل القيم الأخلاقية، فإذا لم تحقق لمن يمارسها هذا الهدف، كانت مجرد طقوس فارغة من مضمونها الحقيقي الذي أراده الله لعباده .ذلك أن عبادة الخالق ينبغي أن تحفز المتعبد الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .إن هذه القيم هي جوهر السلوك الأخلاقي، وإن الأخلاق هي صنو الدين وتوأمه، ولا يمكن للمسلم أن يمارس واجباته الدينية بمعزل عن مكارم الأخلاق، أي عن القيم المنضوية تحت عناوين :الحق والخير والجمال.

مفهوم الأخلاق:-

ماهية الأخلاق:-

الأخلاق جمع خُلق(بضم الخاء وبضم اللام أو سكونها) وهو الدين والطبع والسجية، وهو الخليقة أي الطبيعة.

وحقيقة الخُلُق أنه، لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهر وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة . والثواب والعقاب يتعلقان

بأوصاف الصور الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصور الظاهرة ، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخُلُق.

ويعرف علم الأخلاق : بأنه ذلك العلم الذي يبثث في نظام السلوك الإنساني وفقاً لمعايير الخير والشر، وهو علم يوضح معنى الخير والشر ويبين ما ينبغي أن يكون عليه تعامل الناس فيما بينهم، ويحدد الأهداف التي ينبغي أن يتوجه إليها أعمالهم، ويشرح الغايات التي يجب أن يبتغوها من وراء سلوكهم . ولا بد من أن تكون أعمال الإنسان صادرة عن فعل إرادي ووعي تام، أي شعور واعٍ، لك يمكن الحكم عليها بأنها خير أو شر.

بناء على ما تقدم يمكن تحديد مفهوم الأخلاق وفقاً لما يلي

*في المعنى اللغوي هي السجية والطبيعة لأنها تنطبع في النفس وتمثل" صورة الإنسان الباطنة.

*الأخلاق تخضع لمعايير الخير والشر .فما كان منها موافقاً لمعايير الخير أمكن أن نصنفه ضمن " محاسن الأخلاق " . وما كان مضاداً لهذه المعايير أمكن تصنيفه ضمن الصفات الشريرة المعروفة بالرذائل أو" مساوئ الأخلاق."

*هناك علاقة وثيقة جداً بين الدين ومحاسن الأخلاق فكأنهما وجهان لعملة واحد . وفي المفهوم الإسلامي لا يمكن الفصل بين العبادات والقيم الخلقية .فإذا لم تؤد العبادة إلى العمل بالفضائل ومكارم الأخلاق، كانت عبادة جوفاء لا قيمة لها على الإطلاق.

*يبحث علم الأخلاق في أعمال الناس الإرادية الواعية فيحكم عليها بالخير أو الشر من أجل توجيهنا نحو تحقيق المنفعة والإصلاح والكمال لأنفسنا وللآخرين .إنه يشجع الإرادة على عمل الخير.

ب- مصدر الأخلاق

بعد تعريف مفهوم الأخلاق لا بد من تحديد منبع الأخلاق هل هي صادر عن معايير وأحكام يقررها المجتمع ويلزم أفراده باتباعها؟ أم هي صادر عن القيم الإنسانية الكبرى القادرة على توجيه مسير الإنسان إي الوجهة الصحيحة؟ لقد سبقت الإشارة إلى أن ماهية الأخلاق تنجلي في ضوء علاقتها بمفاهيم الخير والشر . فالأخلاق الصالحة هي التي تتوافق ومفاهيم الخير، أما مساوئ الأخلاق فهي التي تصدر عن نوازع الشر في النفس البشرية . لذلك ينبغ أن نتبين من أين تنبع معايير الخير والشر وكيف تتحد؟

من البديهي القول إنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الأخلاقي في هذه الدنيا، وليس لغيره من سائر الكائنات الحية القدرة على فهم ماهية القيم، والتعبير عنها في سلوكه . فالحيوانات تشبع شهواتها باتباع غرائزها فقط من دون أي تمييز بين خير وشر . أما الإنسان فهو" كائن عاقل يملك من الفكر والإرادة ما يستطيع معه تجاوز مستوى الغريزة والتسامي إلى مستوى السلوك الأخلاقي الحر "، فالحرية تعطي الإنسان القدرة على الاختيار بين فعل الخير وفعل الشر، ولا بد من وجود الحرية لوجود خير أو شر، لأن ما يقوم به الإنسان مكرهاً بلا اختيار لا يمكن أن يخضع لمعايير القيم الإنسانية التي سبق ذكرها . قال الحق سبحانه مبيناً جدلية الصراع في هذه الحياة الدنيا:

{وَنبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَة وَإِلَيْنَا يرُجَعُونَ 10 } أي أن الخالق عز وجل يختبر الناس بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فينظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط . وعن ابن عباس رض الله عنه أن الله تعالى يبتلي عباده بالشد والرخاء، والصحة والسّقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال وقوله (وَإِلَيْنَا يرُجَعُونَ) أي نجازيكم بأعمالكم . ولكي يكون الإنسان في

ميدان الابتلاء أي – الاختبار الدنيوي – فلا بد له من قدر على الاختيار والتمييز، ولا بد له من إرادة واعية وحرية تامة في إتخاذ قراره، إما شاكرا وإما كفورا.

وفي المفهوم الإسلامي تتحدد هوية الأعمال، لجهة اعتبارها خيرة أو شريرة ، وفقا لما يحدده الشرع، وليس تبعا للأهواء البشرية . فالصدق فضيلة والكذب رذيلة، ولكن الفقه أجاز الكذب من أجل الإصلاح بين الناس في حالات محددة ورد النص عليها، وذلك إستنادا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم" : ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا "وفي صحيح مسلم تفصيل لهذه الحالات بأنها ثلاث : الحرب لأنها خدعة، والإصلاح بين الناس للتأليف بين قلوبهم، وحديث الرجل لزوجته والمرأة لزوجها بما يسر ويجمع شمل الأسرة.

وتفصيل هذه الحالات الثلاث مبسوط في كتب الفقه.

ولذلك فإن الأساس الذي تقوم عليه الأخلاق في الإسلام هو الإيمان بالله وبما أوحى إلى رسوله من الهدى ودين الحق، ومتى التزم الفرد بواجباته نحو ربه كان ذلك بمثابة القاعدة التي يبنى عليها أخلاقه.

فالشرع هو منبع الأخلاق، قال تعالى: { وَعَسَى أَن تكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يعَلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تعْلَمُونَ }. فليس للإنسان أن يستنسب ما يريده من الأخلاق وفقا لأهوائه وشهواته، بل عليه أن يمتثل للقيم التي أمرت هذا نصوص الكتاب والسنة، لأن معيار الخير والشر هو طاعة الشرع

الإلهي أو عصيانه . وبهذا قال الأشاعرة الذين يرون أن المعيار الوحيد لحسن الأفعال وقبحها هو أمر الله ونهيه.

ولقد تعددت المذاهب في بيان منشأ الأخلاق قبل الإسلام وبعده . ومن المذاهب التي فلسفت أصل الأخلاق مذهب الفيلسوف اليوناني" أبيقور (270 – 341 ق.م) الذي رأى أن اللذة غاية الحياة وهي المحققة للسعاة ، وأن الأخلاق تتجلى في إعمال العقل لاختيار بعض اللذات وترجيحها على بعضها الآخر، لأننا لا نستطيع إستيفاء اللذات الدنيوية جميعا بل يجب المفاضلة بينها.

وكان قد سبقه" أريستيبوس "أحد تلامذة سقراط في القرن الخامس قبل الميلاد بالقول أن الطبيعة الإنسانية التي تدعو إلى اللذات العاجلة هي منشأ الأحكام الأخلاقية.

وبعد الإسلام عرفت مذاهب أخرى منها مذهب المنفعة الذي قال به الفيلسوف الإنكليزي" جون ستيورات ميل (1873 – 1806) ومفاده أن معيار اختيار الأشياء وتحديد صلاحها أو فسادها يتوقفان على مدى المنفعة التي تحققها هذه الأشياء للمجتمع أو الأضرار التي تلحقها به.

أما أتباع المذهب العاطفي ، فيذهبون إلى القول بأن كل عمل يكون دافعه والمحرك له عاطفة المحبة للآخرين، فهو عمل حسن؛ وكل عمل دافعه حب الذات هو عمل قبيح . فالأخلاق الفاضلة تتجلى في الأعمال الناشئة عن التعاطف مع الآخرين وحب الغير .

وخلاصة القول أن الإسلام يختلف عن كل ما ذكرنا من مذاهب فلسفية، لأنه ربط مكارم الأخلاق بالقيم التي أمر الله تعالى عباده بالتزامها والعمل بها منذ أوجد الإنسان وجعله خليفة في الأرض، ولذلك يرى ابن مسكويه * أن علم الأخلاق هو أول علم تأسس منذ بدء الخليقة، لأن الله سبحانه أفاض المعلومات والأسماء الدالة على المسميات على أول بشر خلقه وجعله خليفته في أرضه (...) وذلك لأن المصالح الأرضية تقتضي وجود صناعة ذات أصول وقواعد لتربية الأنفس بحيث تجعلها صالحة للبحث في أحوال الموجودات على وجه يضمن الاعتدال في الطلب ويسير بكل نفس إلى ما أعدت له وتهيأت إليه، هذه الصناعة التي حلت في المحل الأول من الأنبياء والمرسلين، ثم انقلبت في الملوك العادلين والسلاطين الصالحين، كانت سبباً لنظام العالم وتدبير مصالح الخلق ... .

فالقيم الأخلاقية في المفهوم الإسلامي تنبع من الوحي الإلهي حيث اقتضت حكمة الخالق، عز وجل، أن يختص هذا الإنسان الذي كرّمه عن سائر المخلوقات، بشرف الخلافة في الأرض؛ وه مهمة جليلة، لا بد لمن يقوم بها من التزود بأصول وقواعد لتربية الأنفس وتهيئتها لتكون قادرة على قيادة الأفراد والجماعات إلى عمل الإصلاح وتحقيق العدالة في المجتمع.